الفصل الرابع

كتابة الرسائل

— ١ —

من عمرو إلى ابن طولون

كتابة الرسائل ، أو الكتابة الإنشائية ، نوع من النثر الفنى المسطور الذى يعتمد على الأفكار المنظمة تنظيما جميلا ، وعلى صياغة هذه الأفكار فى عبارات وألفاظ متخيرة ويكون التراسل به بين طرفين غالباً ، وله رسوم فى البدء والختام تميزه عن غيره من أنواع النثر الأخرى .

ويطلق مؤرخو الأدب العربى كلمة الكتابة على هذا النوع ، ومن ذلك القول الشائع : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » — وإن لم تختم إلى الآن — .

ويقسمون الرسائل قسمين عامة وخاصة ، وتسمى الأولى الديوانية ويقصدون بها الرسائل الإنشائية التى تصدر عن الخلفاء والأمراء والسادة والقادة ، فى شأن من شئون الدولة ، أو فى مسألة عامة يهتم بها الحاكمون . والثانية الإخوانية ويقصدون بها الرسائل الخاصة التى تجرى بين الناس فى أمور تعنيهم . وتطور هذا النوع من الكتابة حتى شمل مختلف الشئون التى تهم الأفراد والجماعات . وتغير لفظه ومعناه ، وأساليبه وعباراته وموضوعاته ؛ فصار من العسير أن تعين له موضوعا ، أو أن تقصره على نوع من المعانى ، أو أن تخصه بطائفة من الأفكار ، ووصل إلى غاية سامية من التنوع والقوة فى القرن الرابع الهجرى ، وشمل من المعانى

العاطفية رسائل العتاب والشفاعة والاعتذار والشكوى والتهديد والاشتياق والمدح وغير ذلك .

وولى أمر الكتابة رجال عرفوا بسعة المعارف ، وجودة الروية ، وحسن التصرف ، وجمال التعبير .

وكان استقلال ابن طولون فاصلا بين عهدين من عهود الكتابة الإنشائية بمصر ؛ أولهما من عمرو بن العاص إلى ابن طولون ، وثانيهما من ابن طولون إلى قيام الفاطميين .

وفى هذا الفصل حديث الكتابة إلى زمن ابن طولون :

(١) فى زمن الراشدين :

لما قدم عمرو بن العاص بجنوده لغزو مصر ، وقادهم إلى نصر مؤزر ، وفتح مبين فدانت لهم البلاد ، وفتح الله عليهم هذا الوادى الخصيب . كان أهم ما يشغلهم فى عهدهم الأول — عهد عمر — أن تكون صلتهم بالمدينة المنورة متصلة ، وأن تجرى بينهم وبينها مراسلات ، يخبرون الخليفة فيها بأخبار الحرب والصلح والنصر والغنائم والخراج ، وبكل ماله ارتباط بإدارة البلاد وسياستها مما يحتاجون فيه إلى رأى الخليفة وأوامره ، فكانوا يطلبون منه العون عند الحاجة ، ويخبرونه بشروط الصلح إذا كان صلح ، ويبشرونه بالنصر إذا جاءهم به الله ، وقد يصفون له أحوال البلاد ، ويذكرون له طبيعة أرضها ، وما تنبته من زروع وثمار ؛ ويصفون أحوال النهر الذى يسقى هذه البلاد ، وزمان فيضه وغيضه ، ويذكرون له أزمان الحصاد ، ومقدار الخراج ومواعيد الجباية ، وغير ذلك من شئون السياسة والحرب والإدارة .

وكان العرب فى مصر ، كما كانوا فى الحجاز والشام والعراق ، حديثى عهد بالكتابة ،ليس لهم فيها نظام قديم ، ولا تقاليد سابقة ، ولا فروق معينة بين نوع

منها ونوع . فكانوا من أجل هذا أحراراً فى رسائلهم ، يكتب كل منهم على سجيته ، لا يقيده إلا عبارات البدء والختام الدينية وفكرته عن الموضوع ؛ كان حراً فى أن يكتب عن المعانى التى تدور فى خاطره عندما يعتزم الكتابة ، مع الإيجاز وحسن الأداء . فامتزج الأدب برسائل السياسة والإدارة ، وصبغت هذه الرسائل بصبغة أدبية ، حتى فى الموضوعات التى تبدو إدارية خالصة . ونذر أن تشذ رسالة أو عهد أو وصية عن هذا . وليس غريباً أن تكون كتابتهم على هذه الصفة إذا عرفنا أن الذين كانوا يتولونها هم سادتهم وكبراؤهم من الخلفاء وقواد الجيوش ، ومستشاريهم وأعوانهم .

ويمثل هؤلاء السادة فى مصر عمرو بن العاص رضى الله عنه . وقد رويت عنه رسائل قوية الأداء جميلة التعبير . ومن أقوى رسائله وأشهرها رسالته فى وصف مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يسأله وصفها[1] ، فكتب إليه :

« إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشرٌ ، يكنُفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات ، مباركُ الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوانٌ ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجَّ عجَّاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصولُ بعضِ أهل القرى إلى بعض إلا فى خِفَافِ القَوارِب وصِغَار المراكب ، فإذا تكامل فى زيادته نكَصَ على عقبه ، كأولِ ما بدا فى شدته ، وطَما فى حِدَّته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرقَ وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يَدِرُّ حِلابُه ، ويغنى ذُبَابُه . فبينما هى يا أمير المؤمنين ورقةٌ بيضاء ، إذا هى عنبرةٌ سوداء وإذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد ص ٣٢ .

الفعال لما يشاء » .

« والذى يصلح هذه البلاد وينميها ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها . وألا يستأدَى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها .

فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل » .

وأظهر ما فى هذه الرسالة غلبة السجع عليها ، لكنه سجع لا تكلف فيه ولا تَعَمُّل ، فهو عذب سائغ ؛ وتظهر فيها دقة الوصف وشموله أيضاً ، فقد وصف جانبيها الجديب والخصيب ، وبين ذَرْعها طولا وعرضاً ، وتحدث عن نهرها فى حالتيه ، فوصفه خالياً وطامياً ؛ ووصف الناس وأعمالهم زمن الفيضان وبعده . إلى آخر ما جاء فيها .

وقد وُجِّه إلى هذه الرسالة طعون تنكر نسبتها إلى عمرو والى هذا العصر؛ وتنسبها إلى غيره من العصور المتأخرة التى نضجت فيها الكتابة العربية ، واهتم رجالها بالحلية اللفظية ، وترتيب المعانى واستقرائها . ونسبت بعض الروايات[1] إلى هذه الرسالة دعاءً فى أولها لأمير المؤمنين . وأنها لم تبدأ بحمد الله ولا بسلام على المرسل إليه فى تلك الرواية .

وعندى أن هذا كله لا يكفى لإنكار نسبتها فى جملتها لعمرو بن العاص ؛ فهذا الوصف الذى كتبه وصف حسى ، يستطيع أن يكتبه كل من عنده قدر من الملاحظة. وقد عرفها عمرو قبل الإسلام ، ثم نزلها فاتحاً فوجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة البلاد ، وطاف فى كثير من أرجائها عند فتحها[2] .

وطالت إقامته فيها فشاهد كل ما وصفه فى رسالته . وكان وصفه لها بعد أن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ (٢) ص٤ من هذا الكتاب .

استوصفه عمر ؛ إذ كان حريصاً على معرفة أحوال المسلمين ، والبلاد التى ينزلون بها ؛ ليرى رأيه فى أحوالهم ومنازلهم ، ويأمر بما يراه صالحاً لهم . وشبيه ذلك ما فعله بالعراق ، فقد أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أيضاً وهو فى القادسية يقول له : « فصف منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن ، صفةً كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجَلِيَّة »[١]. فكتب إليه سعد يصف القادسية وما حولها.

أما ميل عمرو رضى الله عنه إلى الوصف فله أكثر من مثال : منها الوصف الذى تقدم ، ومنها وصفه للاسكندرية[٢] بعد فتحها ، ومنها وصفه للبحر .

وما علينا من حرج فى أن نذكر قصة هذا الوصف :

روى أن معاوية — وهو وال على الشام — أرسل إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح قبرص ، ويذكر له قربها من الساحل ، حتى قال له : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نُباحَ كلابهم ، وصِياحَ دَجاجهم (يقصد قبرص) » ، فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر : ولكنه اتهمه ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أن صف لى البحر وراكبه ؛ فإن نفسى تنازعنى إليه .

فكتب إليه عمرو :

إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركَنَ خرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة : والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود إن مال غرِق ، وإن نجا بَرِق[٣] .

وكتب هذا الوصف للبحر وهو وال على مصر .

وقد عرف عن عمرو أنه وصف نفسه أيضا[٤].

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى جـ ١ ص ٢٩٩ .
(٢) المقريزى جـ ١ ص ١٦٦ .
(٣) تاريخ الإسلام للنجار ص ٨٨ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٦٢ .

فعمرو وصاف للبلاد والمدن والبحر والرجال .

أما الناحية اللفظية أوالناحية الشكلية ، فليست ضعيفة أمام الطعن الذى يوجه إليها ، إذ أن السجع فيها ليس غريبا على عمرو بن العاص ، واقرأ خطبته السابقة[1] ووصفه القريب للبحر ؛ ففيهما السجع المقبول ، كما فى رسالته التى نتحدث عنها ، وفى إنشاء عصره كثير من السجع أيضا . فليس السجع غريبا عليه ولا على زمنه .

وأما خلو الرسالة من بعض عبارات البدء والختام التى كانت متبعة فى عصره كالبسملة أو الحمدلة أو السلام ، فلا يطعن فى الرسالة أيضا ، إذ أن الرواة كانوا يشيرون إلى ذلك ، وقد يتركونه اكتفاء بما هو معروف من التزام الكتاب والخطباء لهذه العبارات . ولو أن شيئاً منها قد أهمل فى رسالة عمرو لالتفت إليه الرواة ونصوا عليه ، كما التفتوا إلى إهمال زياد أن يبدأ خطبته بحمد الله ، فسموها « البتراء » .

لكن هذا الدفاع عنها لا يمنع أن يكون الدعاء لأمير المؤمنين ، الوارد فى بعض رواياتها ، شيئاً أضيف إليها فيما بعد ، وكذلك الجزء الأخير منها ؛ لأنه ضعيف السجع متكلف التركيب ، بادى الهزال .

واختلاف الروايات فى هذه الرسالة يقطع بأن بعض التغيير والتبديل قد أصابها إما من فعل الرواة أو من عمل النساخ . كما حدث هذا فى كثير من النصوص الأدبية التى تداولتها الأيام رواية وحفظا .

وكان لعمرو رسائل أخرى يرد بها على أمير المؤمنين فى حسابه العسير الذى كان يصيبه ويصيب غيره من عمال الدولة . ولدينا من ذلك مراسلات بينهما يبدأ الخليفة فيها باتهام عمرو ، ويدفع عمرو عن نفسه بأعذار يراها مبررة ، ولا يقبل الخليفة

---

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب .

منه عذره . وهذه بعض الرسائل :

كتب عمر بن الخطاب :

«من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإنه بلغنى أنه فَشَتْ لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتمه » .

فكتب إليه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . فإنى أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لى، وأنه يعرفنى قبل ذلك لا مال لى . وإنى أُعلِم أمير المؤمنين أنى ببلد السعرُ فيه رخيص ، وإنى أعالج فيه من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعة . والله لو رأيت خيانتك حلالا ماخنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ! ولعمرى إن عندك من تذم معيشته ولا تذم له ، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك ؛ ولم نشركك فى عملك » .

فرد عليه عمر :

« أما بعد . فإنى والله ما أنا من أساطيرك التى تسطر ، ونسقك الكلام فى غير مرجع ، لا يغنى عنك أن تزكى نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ... تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام » .

وذهب إليه محمد بن مسلمة وشاطره ، وأبى أن يشرب عنده شربة ماء ، وغضب عمرو وسخط ؛ فكتم محمد بن مسلمة ذلك ولم يخبر به أمير المؤمنين [1] .

ونرى فى رد عمرو أنه بدأ هادئاً ، يفند التهم ويعتذر عما أخذ عليه . ثم يثور

---

(١) العقد ج ١ ص ٢٦ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧٧ .

فجأة ، وينفجر انفجارا حين يقول للخليفة : « فأقصر أيها الرجل! فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك » ، ولم يعبأ الخليفة بهذه اللهجة فكان رده عليه قاسيا ، صريحا فى الاتهام بلا خوف ولا مجاملة .

وكان عمرو يتلقى من أمير المؤمنين رسائل عنيفة بين الحين والحين ، وهذه إحداها:

لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى فكرتُ فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضُك أرضٌ واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجَلَدا ، وقوة فى برٍ وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما ، مع شدة عُتُوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تريث ، ورجوت أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك ، فاذا أنت تأتينى بمعاريضَ[1] تعبأ بها ، لا توافق الذى فى نفسى ، ولستُ قابلا منك دون الذى كانت تؤخذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيعاً نُطُعاً[2] إن الأمر لَعَلَى غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركتُ أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى ، رجاء أن تفيق فترفع إلىَّ ذلك . وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمالُ السوء ، وما تُوَالِسُ[3] عليه وتُلَفِّفُ[4] . اتخذوك كهفاً ،

(١) معاريض : إجابات غير صريحة . (٢) نطعا : بضم الطاء والعين ، متشدقا فى كلامك .
(٣) توالس : تخادع . (٤) تلفف : تجمع من هنا وهناك .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء ، والسلام[1] » .

وهذا رد عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص :

سلام عليك ، فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمرى لَلْخراجُ يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغبَ فى عمارة أرضهم منا ، منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حَلْبا قطعَ دَرَّها ، وأكثرت فى كتابك وأنَّبْت ، وعَرّضت وترَّبْت ، وعلمتُ أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خُبْر ، فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصينٌ صارم ، بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شيناً ، فيُعرَفُ ذلك لنا ، ويُصدَّقُ فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعَم ، ومن شر الشيم ، والاجتراء على كل مأثم ، فاقبض عملك ، فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عِرْضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يابن الخطاب لأَنَا حين يرادُ ذلك منى ، أشدُّ لنفسى غضباً ولها إنزاها وإكراما ، وما عملت من عمل أرى علىَّ فيه متعلَّقاً ، ولكنى حفظت مالم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثربَ ما زدتَ . يغفر الله لك ولنا ؛ وسكتُّ عن أشياء

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقريزى ١ : ٨٧

كنت بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذلولا . ولكن الله عظم من حقك ما لا يُجْهَل ، والسلام[1] .

فهذا اعتذار من تهمة ، وتنصل من قذف ، ودفاع عن شرف ، وإنك لترى فيه نفس المغيظ الثائر ، وأدب المرءوس التابع ، واعتزازاً بنزاهة الولاية ، واستقالة من سوء ظن الخليفة به ، وعتباً وتذكيرا .

وكان هناك رسائل فى عهد عثمان ، كتب بها الثائرون بعضهم إلى بعض ، يذكرون سيئات عثمان عندهم ، وعيوبه فى نظرهم ، ثم جاوزوا النقد إلى الثورة ، وائتمروا بقتله ؛ وكان قتله باب فتنة كبرى شبت نارها فى البلاد الإسلامية لم يخمد لهيبها .

وبويع بعده على ، واتهم بالتهاون فى القصاص من قاتليه ، وأبى معاوية أن يبايعه ، ثم نازعه فى الأمر ، وطلب الخلافة لنفسه ، وكان للنزاع بينهما صدى حربى وأدبى فى مصر ، أشرنا إلى جزء منه فى حديثنا عن الخطابة[2] . واستعان كل منهما ومن أنصارهما بالبيان وسحره ، وأثر لنا من ذلك العهد رسائل صدرت عن مصر أو وردت إليها ، صارت جزءاً من تاريخها ، وسجلا من سجلات أحداثها . تمتاز بقوة بواعثها ، وحرارة النزاع فيها ، وثورة العواطف فى سطورها ، وغليان النفوس فى عباراتها ، وحرية القول فى ثناياها ؛ طمعاً أو تهديداً ، أو دفاعاً ، أو ثناء ، أو إغراء ، أو غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرسائل .

ومنها رسالة من سيدنا على بعث بها إلى أهل مصر[3] مع قيس بن سعد بن عبادة ، يقدمه إليهم لما ولاه عليهم . فخرج قيس فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل

---

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقريزى ١ : ٨٧

(٢) ص ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) أشير إلى هذه الرسالة فى ص ٢٨ من هذا الكتاب أيضاً .

مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين ، فقرىء على أهل مصر ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله عز وجل ، بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام ، إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، والفرائض والسنة ، لكى ما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكاهم لكى ما يتطهروا ...

فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عَمِلا بالكتاب والسنة . وأحسنا السيرة ، ولم يَعْدُوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضى الله عنهما . ثم وَلِيَ بعدهما والٍ ، فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا .

ثم نَقَمُوا عليه فغيروا ، ثم جاءونى فبايعونى ، فأستَهْدِى الله عز وجل بالهدى ، وأستعينه على التقوى ؛ ألا وإن لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيامَ عليكم بحقه ، والتنفيذَ لسنته ، والنصحَ لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

«وقد بعثت إليكم « قيس بن سعد بن عبادة » أميراً ، فوازروه ، وكانفوه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسانِ إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هديَه ، وأرجو صلاحه ونصيحته .

---

(١) تاريخ الإسلام للنجار ص ٤٢٤ .

أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا ، وثواباً جزيلا ، ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

« وكتبه « عبيد الله بن أبى رافع » فى صفر سنة ٣٦ » .

وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، ومعاوية بن حُدَيج الكندى . وكانا قد خالفا علياً[1] :

« أما بعد . فإن الله قد بعثكما لأمر عظيم ، أعظَمَ به أجركما . ورفع به ذكركما ، وزينكما به فى المسلمين ؛ طلبكما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبكما لله إذ تُرِكَ حكم الكتاب . وجاهدتما أهل البغى والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجل نصر أولياء الله ، والمؤاساة لكما فى الدنيا وسلطاننا ، حتى ينتهى فى ذلك ما يرضيكما ، وتؤدى به حقكما إلى مايصير أمركما إليه ، فاصبرا وصابرا عدوكما ، وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما ، فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكرهان . وكان كل ما تهويان . والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما جاء الكتاب رد إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج .

« أما بعد ، فإن هذا الأمر الذى بذلنا له أنفسنا ، واتبعنا أمر الله فيه ، أمرٌ نرجو به ثواب ربنا ، والنصرَ ممن حالفنا ، وتعجيلَ النقمة لمن سعى على إمامنا . وطأطأ الركض فى جهادنا ، ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفيْنا من كان به من أهل البغى ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت المؤاساة فى سلطانك ودنياك ، وبالله ما ذلك الأمر الذى له نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتنا ما نتمنى ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يؤتيهما الله جميعاً عالماً من خلقه ، كما قال فى كتابه ، ولا خلف لموعوده : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » . عَجِّلْ علينا خيلك

(١) الطبرى ج ٦ ص ٧٥ .

ورَجلك، فإن عدونا قد كان حرباً علينا ، وكنا فيهم قليلا ، فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مُقْرِنين[1] فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم ؛ ولاحول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والسلام عليك » .

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن أمر معاوية عمراً بالتجهز والخروج ، فخرج فى جيش ، مزوداً بنصيحة من معاوية . فلما نزل مصر كتب إلى محمد بن أبى بكر :

« أما بعد . فتَنَحَّ عنى بدمك يا بن أبى بكر ، فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظَفَر . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البِطان . فاخرج منها فإنى لك من الناصحين[2] » .

وأرسل معه بكتاب من معاوية إليه . « صورته » :

« أما بعد ، فإن غِبَّ البغى والظلم عظيم الوبال ، وإن سَفْكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، ومن التبعة الموبقة فى الآخرة ، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشد عليه خلافاً منك : سعيت عليه فى الساعين . وسفكت دمه فى السافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناسٍ لك ، حتى تأتى فتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجُلُّ أهلها أنصارى ، يَرَوْنَ رأيى ، ويرقُبون قولى ، ويستصرخوننى عليك ! وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك ، يستسقون دَمَك ، ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهداً ليُمَثِّلُنَّ بك ، ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ، ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك ، وعَدْوِك على عثمان . يوم طُعِن بمشاقصك بين خَشَشائه وأوداجه ، ولكن أكره أن يُمَثَّل بقرشى ولن يُسْلِمك الله من

---

(١) مطيقين . من « أقرن الشىء » أى : أطاقه .

(٢) ج ١ النجوم الزاهرة ص ١٠٩ .

القصاص أبداً أينما كنت ، والسلام[1] » .

وأخبر محمد سيدنا علياً الخبر وطب منه المدد ، ورد عليه سيدنا على يهون أمر هذه الحملة ، وأن يجيب على رسالتيهما . فكتب إلى معاوية :

« أما بعد . فقد أتانى كتابك . تذكرنى من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه ، وتأمرنى التنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى المُثْلة ، كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عليكم فأجتاحكم فى الوقعة . وإن تُؤْتَوا النصر ، ويكن لكم الأمر فى الدنيا ، فكم لَعَمْرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثَّلتم به . وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مَرَدُّ الأمور . وهو أرحم الراحمين . وهو المستعان على ما تصفون » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لى نصيح ، وأقسم أنك عندى ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيى وأمرى ، وندموا على اتباعى ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء[2] » .

لقد كانت رسالة معاوية إلى ابن حديج ومسلمه كما ترى ، رسالة مدح وثناء ، وإطماع وإغراء ، ووعد معسول بالمشاركة فى سلطانه إذا كانت له الغلبة والعاقبة .

وكان رد مسلمة عن نفسه وعن صاحبه رد المؤمن بعقيدته ، الغاضب لقتل خليفته ، المعرض عن دنيا معاوية ووعوده ، على أنه لقى جزاءه الموفور لما آلت البلاد إلى معاوية ، فحكمها له ، ولابنه يزيد من بعده ، خمسة عشر عاما (من سنة ٤٧ إلى سنة ٦٢ هـ) .

---

(١) المشقص سهم فيه نصل عريض . الأصل خششاء ويسكن ويدغم فيصبح خشاء بضم الأول وهو : العظم الناتئ خلف الأذن ، والأوداج جمع ودج وهو عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة ،وقيل هو كل عرق إذا قطع مات صاحبه ، وله أسماء :فهو الوريد فى العنق ، والودج أيضا ، والنياط فى الظهر والابهر فى الصلب وهو متصل بالقلب الخ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين للنجار ص ٤٦٣ .

وكانت رسالة معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي بكر طعناً وتخذيلا ، ووعيداً وتهديداً ودعوة إلى الاستسلام قبل أن ينزل به أشد الانتقام .

وكان رد ابن أبي بكر عليهما رداً تملؤه الحماسة ، والإصرار على ما فعل ، والإدراك الصحيح لما يرمى إليه خصماه ، وفيه تهكم واتهام لمعاوية وعمرو فيما أبدياه من إشفاق عليه ، وما بذلاه من نصيحة له .

وترى فى هذه الرسائل صورة واضحة من رسائل العهد الأول ، طابعها الإيجاز ورنين العبارات ، والاستعانة بآيات الله لتكسبها قوة وزينة ، والمحافظة على الكلمات والعبارات التى كانت تبتدئ بها الرسائل وتنتهى .

وهذا الأسلوب الخطابى الذى يسيطر عليها جميعها أسلوب فرضته موضوعاتها ومناسباتها ، فاستعان كتابها بكل ما يؤثر فى القارئ من قوة البيان ، والمهارة فى إبداء الحجة ، واللباقة فى عرض وجهة النظر والدفاع عنها ، واتهام الخصم وإيعاده وتهديده .

وهى — على إيجازها — تشمل كثيراً من المعانى التى جاشت بها نفوس كاتبيها ، وعليها سيما منشئيها ، وانظر إلى معاوية فى رسالتيه تجده السياسى الماهر الذى يزين لمسلمة أفعاله ، ويستزيده منها ، ويغريه بالسلطان لاستمرار الثورة . وهو مع ابن أبى بكر شديد مخيف يرى أنه لابد من السيف ، ولكنه يخلع قلبه قبل اللقاء . فيذكر له قوة من معه ، وحرصهم على دمه ، ورغبتهم فى التمثيل به ، ويبدى له من النصيحة والإشفاق بعد ذلك ما يطمعه فى عفوه ، ولكن خاب ظنه فى ابن أبى بكر الذى أصر على الحرب وثبت . فدارت عليه الدائرة ، ولله عاقبة الأمور .

ب — فى عهد بنى أمية :

لم تخرج الكتابة فى عهد الأمويين عما رسم لها من قبل من حيث البدء والنهاية والإيجاز وقوة البيان ، وكان يغلب عليها السياسة فهى كتب مبايعات أو أمان

أو أوامر بزيادة فى أعطيات الجند أو فى شأن الخراج أو ما أشبه ذلك من أمور الدولة . وقل أن تجد فيها رسالة إخوانية أو أن تكون دائرة حول شئون خاصة بين اثنين .

وكان زمامها بيد الولاة والعمال ، فإنا نجد مسلمة بن مخلد يكتب إلى عابس بن سعيد واليه على الشرط أن يأخذ البيعة ليزيد[١] ، ونجد مروان بن الحكم يكتب أمانا إلى أهل مصر بيده ، يؤمنهم على جميع ما أحدثوه[٢] .

وكانت ولاية العهد عيباً من عيوب بنى أمية ، إذ كان الخليفة يعهد بالأمر بعده إلى أكثر من واحد ، فإذا مات حدث بينهم من النزاع والكراهة شىء كثير

وأول من عهد إلى اثنين مروان بن الحكم ، عهد بها إلى ابنيه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، فلما شب الوليد بن عبد الملك ، رأى أبوه أن يجعل الأمر له ويخلع عبد العزيز ، وكتب فى ذلك إلى أخيه يقول :

« يا أخى إن رأيت أن تُصَيِّر الأمر لابن أخيك ، الوليد ، فافعل » . فأبى عبد العزيز فكتب إليه عبد الملك ثانية . « فاجعله من بعدك فإنه أعز الخلق إلى »

فكتب إليه عبد العزيز : « إنى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما تراه فى الوليد[٣] » .

وفى رواية الكندى[٤] أنه كان فى كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك : « إنك لو رأيت الأصبغ لسرك ، ولم تقدم عليه أحداً » .

فكتب إليه عبد الملك ثالثة : « فاحمل خراج مصر إلى » . وكأنه يحرجه .

فكتب إليه عبد العزيز : « إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهلنا ، وإنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أولا ، فإن رأيت ألا تُغَشِّشَ علىَّ بقية عمرى ، ولا

---

(١) الولاة والقضاء ص ٣٩ (٢) الولاة والقضاء ص ٤٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣ (٤) ص ٥٤

يأتيني الموت إلا وأنت واصل ، فافعل » .

فرق له عبد الملك وقال : لا أغثث عليه بقية عمره . ومات عبد العزيز قبله وانتقلت الخلافة الى الوليد .

نقل الديوان إلى العربية :

ومن المسائل التى يعرض لها تاريخ الأدب لماما نقل الدواوين فى مصر إلى اللغة العربية — والمقصود بها دواوين الخراج طبعاً ، فإن ديوان الإنشاء لم يكن موجوداً ، ولو كان موجوداً ما كان إلا بالعربية — والشائع أن نقل الديوان كان فى عهد عبد الله بن عبد الملك ، وبأمر منه ، سنة ٨٦ هـ[1] .

أما الأصل الذى نقلت عنه فهو القبطية عند مؤرخى العرب . ولما أمر عبد الله بنسخها بالعربية صرف أشناس عنها ، وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدواوين كانت باليونانية ، وحجتهم فى ذلك أن البلاد كانت تابعة للدولة الرومانية الشرقية زمناً طويلا ، وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية فى كل بلاد الدولة ، ومنها مصر والشام . فلما جاء العرب لم يغيروا شيئاً من طرق الروم فى تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم . ويستدل القائلون بهذا الرأى بدليل آخر ، هو أن أوراق البردى العربية التى اكتشفت حديثاً ، وترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية .

وليس فى هذا الاحتجاج من القوة ما يهدم قول المؤرخين العرب . وذلك لأن اليونانية التى بقيت فى دواوين الشام حتى ترجم عنها العرب ، لم تكن لها لغة تنافسها فى تلك البلاد ، ولا مذهب دينى يخالف مذهب الدولة الحاكمة ، لقى

(١) الولاة والقضاة ص ٥٩ . وفى صبح الأعشى ج ١ ص ٤٤٢ أن ذلك كان فى عهد عبد العزيز بن مروان .

أهله كل ذل وهوان واضطهاد ، وتعذيب من هذه الدولة . واللغة القبطية كانت لغة قوية ، لها وجودها وأدبها وفلسفتها . . الخ . والذين كانوا يلون أمر الدواوين فى مصر من الروم قد هجروا البلاد إلا قليلا منهم . يقول بتلر[1] : « على أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة ، إذ نزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب فى مكانهم عمالا من القبط فما مر إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعاً من المسيحيين » .

وهناك طريقة كانت تتبع فى جباية الخراج . وهى أن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانوا بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبى من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شئ فوق ما فرض على قريتهم أنفق فى إصلاح أحوالها . وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص رَيْعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها . . . وكذلك كانوا يقدرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب وكان هذا حقاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم[2] .

فأين كانت تلك الدواوين المكتوبة باليونانية فى عهد عبد الله بن عبد الملك ؟ أما القرى فهذه طريقة تقدير الضرائب فيها . فإذا سجلوا ما قدروه كان تسجيلهم بالقبطية ، وإذا قيل إن العرب كانوا يحتفظون بسجلات يونانية لتدوين الخراج ، ومعرفة ما يجبى ومواعيده وشبه ذلك ؛ وإن القائمين بشأنها كانوا من الروم ، فهو قول يضعفه تخلى الروم عن الأعمال وانتقالها إلى أيدى القبط .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩١

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٢ ، حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٦٣ المطبعة الشرقية نقلا عن ابن عبد الحكم .

وما عثر عليه من أوراق البردى فى عهد الوليد بن عبد الملك ليس كتابة دواوين ، وفى الورقة الأولى والثانية من مجموعة جروهمان[١] كلمات دينية معدودة ، باليونانية والعربية . وفى أسفل الورقة الأولى ، أو الطراز الأول كما يسميه ، نص قبطى من عشرة أسطر ، وفى أسفل الطراز الثانى ثمانية أسطر قبطية ، فليس فى هاتين الورقتين من عهد الوليد ما يؤكد أن الدواوين كانت باليونانية . وإذا كانت هذه اللغة رسمية فى عهد الرومان فقد زالت عنها هذه الصفة فى عهد العرب . وربما جاء هذا اللبس من تشابه اللغتين ، فإن القبطية كانت تكتب بحروف يونانية ، وكان فيها كثير من الكلمات اليونانية . أما نظام الدواوين فكان يونانيا ، ولا مانع أن يبقى كذلك حتى بعد كتابتها بالعربية .

وبعد فإن ترجمة العرب لهذه الدواوين كان ضرورة لتقدمهم ورغبتهم فى أن يلوا أمر البلاد بأنفسهم . وكثرت المصطلحات عندهم فى أبحاث الفقهاء، فلم يكن عسيراً عليهم أن ينقلوا الدواوين هنا وفى العراق والشام . ثم مرنوا على هذه الأعمال فاستغنوا فى شئونهم المالية عن أن يديرها لهم دخيل .

ومن الرسائل الأدبية رسالة من عبد الله بن عبد الملك ، إلى موسى بن نصير والى المغرب ، لما تخطاه وكتب إلى أبيه عبد الملك فى دمشق ، فكتب إليه عبد الله يهدده :

« أما بعد . فإنك كنتَ من عبد العزيز وبِشرٍ بين مهادين تعلو عن الحضيض مُهودها ، ويدفِئك دِثارُها ، حتى عفا مخبرك ، وسمَتْ بك نفسُك . . . . وايمُ اللهِ لَأَضَعَنَّ منك ما رَفعا ، ولأُقِلنَّ منك ما كثَّرا ، فصَحٍّ رُوَيْدافكأنْ قدأصبحتَ سادِما ، تعَضُّ أنامِلكَنادماً ، والسلام[٢] » .

---

(١) ١١ ، ١٣   (٢) الولاة والقضاء ص ٦٠

وكان جواب موسى بن نصير عليه[١] :

« أما بعد . فقد قرأت كتابك ، وفهمتُ ما وصفتَ فيه ، من إركانى إلى أبويك وعمك[٢] ، ولَعَمْرى إن كنتُ لِذلك أهلا . ولو خبرتَ منى ما خَبرا لما صَغَّرت منى ما عَظما ، ولا جهلت من أمرنا ما عَلما . . . فأما انتقاصك لهما ، فهما لك وأنت منهما ؛ ولهما مك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفاك جزاءَ العاقِّ .

فأما ما نلتَ من عرضى فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك ، وأما تهدُّدُك إياى بأنك واضعٌ منى ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فأرْعِدْ وأبْرِقْ لغيرى ، وأما ما ذكرتَ مما كنتُ آتى به عمَّك عبد العزيز فلعمرى إنى مما نسبتنى إليه من الكهانة لبعيد ، وإنى من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رِسْلك[٣] فكأنك قد أظلك البدر الطالع ، والسيف القاطع ، والشهاب الساطع ، فقد تمهلها[٤] وتمت له . ثم بعث إليك الأعرابى الجلف الجافىَ فلم تشعر به حتى يحل بِعَقوتك[٥] فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ، ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أينا النادم السادم ، والسلام » .

فلما قرأ عبد الله جواب موسى بن نصير كتب إلى عبد الملك كتاباً وأدرج فيه رد موسى عليه ، ولكن عبد الملك مات قبل أن يتلقى الكتاب ، ووقع فى يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر ، فلما قرأه استضحك وقال : لله دَرُّه ! إن كان عنده لأُثْرَة من علم ، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرضه .

---

(١) الولاة والقضاء ص ٦١

(٢) لعل الأصل « إلى أبيك » ليستقيم مرجع الضمائر فيما يأتى .

(٣) الرسل بكسر الراء : الرفق والتؤدة والمعنى ترفق وتمهل .

(٤) الخلافة .

(٥) العقوة والعقاة بفتح العين : ما حول الدار والمحلة ، والمراد ينزل بساحتك .

ويذكرنا هذا بما جرى بعد ذلك بين سليمان بن عبد الملك وهو ولى عهد الوليد ، وبين الحجاج بن يوسف زمن ولايته على العراق ، وإن كانت الرسائل بينهما أشد وأعنف[١] .

وكانت الرسائل تترى بين دار الخلافة والفسطاط ، وأكثرها كتب رسمية فى شئون الدولة . ومن هذه الكتب كتاب من الوليد[٢] إلى قرة بن شريك يأمره بالزيادة فى المسجد الجامع سنة ٩٢ هـ . وكتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بالزيادة فى أعطيات الناس عامة[٣] . ومنها كتابه إلى شريح فى وضع الجزية عمن[٤] أسلم. وكتاب يزيد بن عبد الملك بمنع هذه الزيادة لما ولى الخلافة.

وقد كتب الحر بن يوسف والى هشام بمصر يعلمه « أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فإن الناس مضطرون إليها[٥] »

فأذن له فى بنائها .

ومنها كتاب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام كى يسمح له بإنزال قيس فى جهة بلبيس[٦] .

وكثير مثل ذلك حتى تنتهي دولة الأمويين .

(ح) فى عهد العباسيين .

واستمرت الرسائل فى عهد العباسيين فى المسائل العامة كذلك . وكثرت فيها كتب الأمان والتحذير والإشخاص والتهديد ، وكانت تكثر فى أيام الثورات والفتن .

---

(١) سيف بنى مروان للمؤلف ص ١١٠ — ١١٣
(٢) الولاة والقضاة ص ٦٥
(٣) الولاة والقضاة ص ٦٨
(٤) هذا الكتاب ص ٧
(٥) شرحه ص ٥١ .
(٦) هذا الكتاب ص ٩

وفى هذه الرسائل وأمثالها مجال واسع للعواطف الثائرة ، والانفعالات القوية ، والبلاغة المؤثرة ، والاحتجاج بالدين والعقل ، وإيراد الشواهد والأمثال ، من القرآن الكريم والحديث ومأثور كلام العرب . ويغلب على هذه الرسائل الطول إذا قورنت بما كان عليه الحال فى العهد السابق .

أما أسلوب الكتابة العلمية فلم يكن واضح الحدود فى أول عهد العباسيين ، إذ أن المصطلحات العلمية كانت فى دور التكوين ، وأساليب التأليف كانت ما تزال وليدة ، فكان للعلماء تصرف فى القول ، وحرية فى الطريقة ، وكانت الرسائل العلمية أدبية الأسلوب .

ومن أول هذه الرسائل العلمية التى تتسم بسمة الأدب الرفيع ، والأسلوب الجميل ، والعفة فى الجدل ، والقوة فى البرهان ، وتدل على علم غزير ، واطلاع واسع ، ومعرفة عظيمة بمسائل الدين وآراء السابقين فيها ؛ تلك الرسالة التى « كتبها سيد فقهاء عصره ، بل سيد فقهاء الأمصار علما ونبلا ، وهو الليث بن سعد فقيه مصر ، إلى أخيه مالك بن أنس يبين له ما يؤخذ عليه فى مذهبه من جهة الاعتماد على عمل أهل المدينة ، وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه مالك[1] » .

والرسالة نفسها تشير إلى المكاتبات بينهما فى مسائل الفقه ، وقد بدأها الإمام الليث على طريقة القرن الأول ، من السلام والحمد لله وأما بعد ؛ أما الدعاء

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ص ١١٦ وقد نقلت الرسالة بتمامها هناك ، وأصلها فى إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها) ، ولم أقف على تاريخ إنشائها لكن مالكا مات سنة ١٧٩ ، والليث سنة ١٧٥ ، فكأنها كتبت حوالى منتصف القرن الثانى

للمرسل إليه بالعافية وحسن العقبى فطريقة من طرق العباسيين .

قال الإمام الليث رحمه الله :

« سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك ، الذى لا إله إلا هو . أما بعد عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة .

« قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه ، بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرتَ نظرك فى الكتب التى بعثتُ بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك . وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فإنها كتبٌ انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغَ حقيقتها بنظرك فيها » .

ثم يقول له مشيراً إلى محور الرسالة ، وهو الاعتماد على عمل أهل المدينة .

وذكرت « أنه بلغك أني أُفتِى الناسَ بأشياءَ مخالفةٍ لما عليه جماعةُ الناس عندكم ، وأنى يحق علىَّ الخوف على نفسى لاعتماد من قِبَلى على ما أفتيتُهم به ، وأن الناس تَبَعٌ لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن . وقد أصبتَ بالذى كتبتَ به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تُحب . وما أجد أحداً يُنْسَبُ إليه العلم ، أكرَهَ لشَوَاذِّ الفُتْيَا ، وأشدَّ تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا ، ولا آخَذَ لِفُتْيَاهُمْ فيما اتفقوا عليه ، منِّى . والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له » .

ثم يجادل صاحبه بالتى هى أحسن ؛ ويأتى بأمثلة ظاهرة ، وأدلة متظاهرة ، وحججمتواترة ، تؤيد رأيه .

ويختم الرسالة ختاماً أدبياً عفيفاً ، فيه صادق المودة ، وشريف العواطف ، وكريم الصلات ، وصالح الدعوات ، فيقول :

« وأنا أحب توفيقَ الله إياك ، وطولَ بقائك ؛ لما أرجو للناس فى ذلك

من المنفعة ، وما أخافُ من الضَّيْعَةِ إذا ذهبَ مِثْلُك ، مع استئناسى بمكانِك وإن نَأتِ الدار ، فهذه منزلتُك عندى ، ورأيى فيك ، فاستيْقِنْه . ولا تَتْرك الكتابَ إلى بخبرك وحالِك ، وحالِ ولدك وأهلك ، وحاجةٍ إن كانت لك أو لأحد يوصل إليك ، فإنى أُسَرُّ بذلك » .

« كتبت إليك ونحن صالحون مُعَافَوْن والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكرَ ما أولانا ، وتمامَ ما أنعمَ به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ومن الكتب التى تركت آثاراً قوية فى حياة العرب ولغتهم فى مصر تلك الرسالة التى كتبها المعتصم إلى واليه على مصر ، نصر بن عبد الله ، الملقب « كَيْدُر » . وقد أمره فيها بإسقاط من فى الديوان من العرب ، وقطع أعطياتهم سنة ٢١٨ هـ[1] . وكان ذلك سبباً فى خروج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام ، وترتب على قطع أعطياتهم ، وإسقاطهم من الديوان أن اضطروا إلى مخالطة أهل البلاد ، ومصاهرتهم ، والاشتغال بمثل أعمالهم ، وأصبحوا ينظرون إلى البلاد على أنها دار إقامة لهم . فأدى ذلك إلى انتشار لغتهم ، ثم سيادتها .

وفى القرن الثالث الهجرى ظهر القول بأن القرآن مخلوق ، وأثار المأمون فتنة بين الناس من أجل هذا القول ، وحملهم عليه حملا ، وكتب منشوراً عاماً بامتحان الفقهاء والعلماء ليرى رأيهم فيه ، ويرغم من خالف . وكتب أخوه أبو إسحق « المعتصم » إلى كيدر ، واليه على مصر ، أن يأخذ الناس بالمحنة ويختبر عقيدتهم فى القرآن[2] .

وكان كتاب أبى إسحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد ، أخى

(١) الولاة والقضاة ص ١٩٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٤٤٥

أمير المؤمنين ، إلى نصر بن عبد الله ، كيدر ، مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا اله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، كتب إلى ، فيما أمرنى به من الكتابِ إلى قضاة عملى ، فى امتحان من حضرهم للشهادات ، فمن أقر منهم بأن القرآن مخلوق ، وكان عدلا ، قبلوا شهادته ، ومن دفع ذلك أسقطوا شهادته ، ولم يرفعوا حكما بقوله ؛ وامتحانِ أولئك القضاة بهذه المحنة ، فمن نَفَى منهم التشبيه ، وقال إن القرآن مخلوق ، أقِره بموضعه ؛ ومن دفع أن يكون القرآن مخلوقا أمرْته باعتزال الحكم ؛ وأن لا يُسَمَانَ بمثل ذلك ، فى جميع أهل الحديث هنالك ، ومن يُسمَع منه ، أو يختلَف إليه بسبب الفقه ؛ وترك الإذن لأحد منهم فى حديث أو فتوى إلا على انتحال هذه النِّحلة ، والقول بمثل هذه المقالة ؛ والبلوغ فى كرامة من يعتقد ذلك ومراعاته ، مبلغَ المحتسب للخير ؛ والكتاب إليه أكرمه الله بما يكون منك . وقد رأيتُ أن تمتحن القاضى هناك بالمحنة التى كتب بها أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ليعرف مذهبه وما عنده بأن القرآن مخلوق ، وتركِ التشبيه والشك فيه ، فقدمت إليه فى امتحان من يحضره للشهادات بهذه المحنة ، ومن أقر منهم وكان عدلا قبلت شهادته ، ومن دفع ذلك وامتنع منه أسقطت شهادته ، وإن أنكر القاضى أن يكون القرآن مخلوقا أمرته باعتزال الحكومة ، وأوعزت بمثل ذلك إلى أهل الحديث ومن يسمع منه أو يختلف إليه ، لسبب الفقه ، وكتبت إلى القاضى قبلك بمثل الذى كتبت إليك . فاعلم ذلك ، واعمل بما مثل به أمير المؤمنين منه ، وانته إليه ، وابلغ من القيام به على حسب ما يلزمك ويجب عليك ، وأحضر ما تعمل به عنده من وجوه أهل عملك وصلحائهم ، واكتب إلى بما يكون

---

(١) الولاة والقضاء ص ٤٤٥

من القاضى فى ذلك ، ومنك ، على حقه وصدقه ، لأنهيه إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة وبركاته » .

وورد كتاب المعتصم على هرون بن عبد الله بحمل الفقهاء فى المحنة ، فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبى دُوَاد إلى محمد بن أبى الليث يأمره بالقيام فى المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، وكان رأساً فى القيام بذلك ، فحمل نعيم بن حماد ، والبويطى ، وخشنام المحدث فى جمع كثير سواهم(١) .

واشتدت المحنة فى أيام الواثق (سنة ٢٢٧ — ٢٣٢) وأمر أن يؤخذ الناس بها ، وكأنها نار أضرمت ، وورد كتابه على محمد بن الليث بامتحان الناس ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبى الليث بالاكتتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه(٢) .

واستمر البلاء حتى ولى المتوكل الخلافة ، فكتب إلى الوالى هرثمة بن النضر يأمره بترك الجدل فى القرآن سنة ٢٣٤ ، وعزل ابن أبى الليث ، وورد كتاب المتوكل بلعنه على المنبر ، وحبس وأهين وحلق رأسه ولحيته ، وطافوا به الفسطاط على حمار . ثم خرج من سجنه سنة ٢٤١ إلى العراق .

ولعل هذه الفتنة من أشد ما أثار الجدل بين المسلمين فى القرن الثالث وشغل

---

(١) الولاه والقضاة ص ٤٠٧ .
(٢) الولاة والقضاة ص ٤٥١
(٣) الولاة والقضاة ص ١٩٧

الأدب كتابة وجدلا وشعرا . ونحن نرى أن مصر قد شاركت فيه ، وشغل علماؤها به ، وأوذوا فى سبيله ؛ أما الجدل فى مسائل الحلال والحرام والفقه وأصوله وفروعه ، فكان قوياً جداً بين الشافعية والحنفية والمالكية وكتبهم تشهد بذلك .

والحديث عن هذه المؤلفات وأساليبها ، وطرق رجالها فى البرهنة والشرح والتقرير له مكانته فى تاريخ الفقه والتشريع .